

موسم الهجرة إلى الشمال مقاربة تحليل فاعلي

الشيخ محمد الشيخ *

تمهيد:

يتعلق العمل الروائي بواقع افتراضي، تخيلي، فهو من ثم ليس مطالباً بعكس الواقع الحقيقي، كما أوضحنا، كما ليس دوره أن يصدر معنى محدداً بقدر ما يتمثل دوره فهي تصدير فاعلية.* مع ذلك بما أن فضاء الفاعلية التخيلي أشمل اتساعاً من الفضاء الواقعي، ويشتمل الأول على الثاني كحالة جزئية، نجد أنه من الممكن أحياناً تأويل النص بغية استخلاص بعض المضامين ذات الدلالة الواقعية من بنية العمل الروائي اعتماداً على التحليل الفاعلي.

لقد أدى الثراء الدلالي لرواية موسم الهجرة إلى الشمال وتنوع بنائها الدرامي أن تكون أرضاً خصبة للعديد من الدراسات النقدية من قبل العديد من المناهج النقدية، قراءة: تحليل نفسية، اجتماعية – ماركسية، دارونية، بنيوية... الخ، غير أن الصعوبات آنفة الذكر، التي تتعلق بهوية النص ومعناه ووظيفة النقد قد أعاقت كشف كنوز العديد من الأعمال الروائية ومن ضمنها موسم الهجرة إلى الشمال. رغم إقرارنا بضرورة التنوع والاختلاف في حقل الممارسة النقدية الأدبية، إلا أننا نجد أن كثيراً من هذه القراءات قد غابت عنها بعض الأبعاد الأساسية، كان ذلك في رواية موسم الهجرة إلى الشمال أو عرس الزين، اللتان سوف نعمل على قراءتهما وفقاً للتحليل الفاعلي.

أولاً: لا يستطيع التحليل الاجتماعي الماركسي إيجاد المسوغات وسبر غور الدوافع والصراعات النفسية والحضارية التي أفرزها مجال الأحداث في موسم الهجرة إلى الشمال. ويرجع السبب إلى أن التحليل الاجتماعي الماركسي يقوم على الصراع الطبقي، لذا يكون عطاء المنهج ضعيفاً بقدر ضعف الصراع الطبقي في مجال الأحداث الذي يصفه العمل

الروائي. وإذا كانت أحداث موسم الهجرة إلى الشمال تدور في الريف السوداني في النصف الأول من القرن العشرين فهي بدهاة تعني بمجتمع ينتقي فيه الصراع الطبقي أو على أقل تقدير يلي في الأهمية صراع الإنسان ضد الطبيعة. لذا فإن الحديث عن أن الطيب صالح أخفى الصراع الطبقي ولم يظهره في موسم الهجرة إلى الشمال حديث متعسف ولي لعنق الحقيقة. فالكتاب حر في أن يرسم العمل الفني وفقاً لمتطلبات العمل نفسه وليس مطالباً أن يرسمه وفقاً لمتطلبات أيديولوجية بعينها. ومع ذلك تتضح موسم الهجرة إلى الشمال بالحياة وبصراع الإنسان من أجل البقاء، قال الراوي : "إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة.. لا يعينني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى.. سأحيا بالقوة والمكر." (3) ص 170. ما زالت موسم الهجرة أرضاً بكرّاً تتطلع إلى المنهج الذي يكشف عن كنوز سحرها وجمالها فهل ينجح التحليل النفسي ويفوق عطاؤه التحليل الماركسي ؟

تكشف موسم الهجرة إلى الشمال أيضاً عن محدودية التحليل النفسي في سبر أغوار شخصياتها. في مقال بعنوان "هجرة بلا مواسم" حاولت الجمعية النفسية السودانية تحليل شخصية مصطفى سعيد على ضوء مفهوم مدرسة التحليل النفسي الخاص بتطور الشخصية منذ لحظة الميلاد. فيمر الطفل عبر سلسلة من المراحل المحددة تكوينياً، وما لم يتعرض النمو إلى تدخل ظروف شاذة أو معوقة فمن المتوقع أن يسير النمو طبيعياً ويصبح الإنسان سوياً على شاکلة الغالبية العظمى من الناس. لذا فقد افترضت الجمعية النفسية السودانية على ضوء كوارث الموت التي ارتبطت بظهور شخصية مصطفى سعيد على مسرح الأحداث أن مصطفى سعيد تعرض إلى خبرات شاذة في طفولته أدت إلى خلق عقدة أو شذوذ نفسي جعل منه شخصية إجرامية أو سادية.(1)

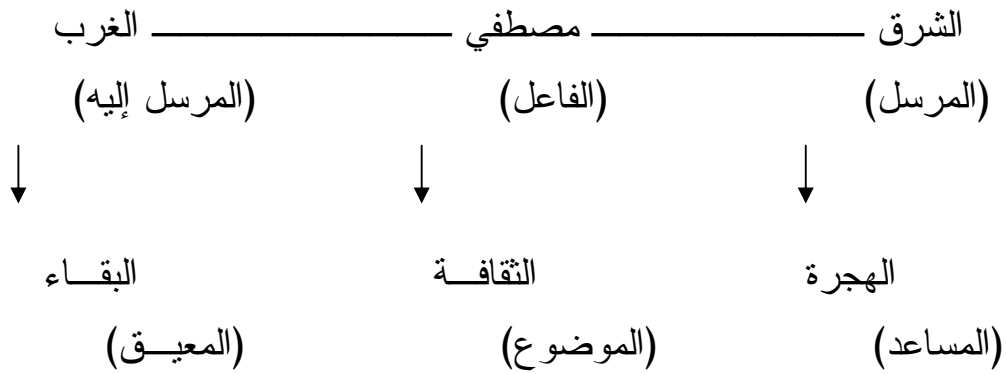
إن هذا الافتراض لا يوجد ما يدعمه في القصة بل يوجد عكس ذلك تماماً. استطاع مصطفى سعيد بتفوقه المذهل أن ينال حب وإعجاب الجميع، بل أن سيكولوجيته هي سيكولوجية اليتيم الذي ينشأ ويتربص تحت رعاية وحماية الجميع فيغدو إنساناً يحب الجميع ويتبنى قضايا المجتمع. هي سيكولوجية أقرب لسيكولوجية أصحاب الرسائل الاجتماعية.

وقد كانت سيرة مصطفى سعيد في ود حامد، قرية على ضفاف النيل في شمال السودان، تدل على إنسانيته وحسن طويته، فكانت علاقته مع زوجته حسنة بت محمود غاية في الإخلاص وكان نموذجاً للمواطن الصالح السوي نصير الضعفاء شهد له بذلك جد الراوي " إن مصطفى طول أقامته في البلد لم يبدُ منه شيء منفر، وإنه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام وإنه يسارع بذراعه وقده في الأفراح والأتراح " (3) ص 10.

وشهد له أيضاً محجوب، قال الراوي وسألت محجوب عن مصطفى سعيد فقال " رحمه الله كان يحترمني وكنت أحترمه. لم تكن الصلة بيننا وثيقة أول الأمر. ولكن عملنا معاً في لجنة المشروع قرب بيننا. موته خسارة لا تعوض. هل تعلم، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع. كان يتولى الحسابات. خبرته في التجارة أفادتنا كثيراً. وهو الذي أشار علينا باستغلال أرباح المشروع في إقامة طاحونة للدقيق لقد وفرت علينا أتعاباً كثيرة وأصبح الناس اليوم يجيئوننا من أطراف البلد. وهو الذي أشار علينا بفتح دكان تعاوني الأسعار الآن عندنا لا تزيد عن الأسعار في الخرطوم، زمان كما تعلم كانت البضائع تأتي مرة أو مرتين في الشهر بالباخرة. كان التجار يخزنونها حتى تنقطع كلية عن السوق ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة. المشروع يملك اليوم عشرة لواري تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأم درمان ورجوته أكثر من مرة أن يتولى الرئاسة ولكنه يرفض ويقول إنني أجدر منه. العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم". (3) ص 10. بكل تأكيد لا يمكن أن تكون هذه أفعال شخص مريض نفسياً وسادياً. إنها أفعال إنسان يحب أهله وذويه ويدافع عنهم، الأمر الذي يدل على أن التحليل النفسي بالإضافة إلى قصوره في معالجة الظواهر الاجتماعية والحضارية فإن قدرته على تحليل المرضى والشواذ، بحكم تركيب النظرية ونشأتها وليس الأسوياء يغري الباحثين ويدفعهم لتبني فرضيات خاطئة تماماً حتى يتسنى لهم تطبيق المنهج. ومرة أخرى نقول في إطار هذه القراءة الإسقاطية إن النظرية في مثل هذه الحالة تكون في الواقع وليس العكس، وعلى الباحث أن يجيب على الأسئلة التي يطرحها واقع النص وإلا يكتفي بالأسئلة التي تجيب عليها النظرية.

إزاء قصور التحليل الماركسي والتحليل النفسي في مقاربة موسم الهجرة إلى الشمال تأتي أهمية الملاحظة التي أوردها الدكتور على عبد الله عباس في ورقته القيمة عن "الراوي في موسم الهجرة إلى الشمال" (5) حينما لفت النظر إلى أنه ربما كان المدخل الأفضل لموسم الهجرة نوعاً من المنهج الدارويني. إن ملاحظة الدكتور على تلفت النظر إلى ضرورة وضع صراع الإنسان ضد الطبيعة في الحسبان، لكن بالطبع لا يعنى ذلك التطبيق الحرفي للدار ونية.

ناقشت يمى العيد الهيكلية التي أفرحها الناقد جورج طرابيشي لموسم الهجرة إلى الشمال في كتابه "شرق وغرب رجولة وأنوثة" التي تتمثل في:



من رأى يمى العيد أن هذه الهيكلية تحدد الفعل الروائي كفعل الوصول بالشرق إلى مستوى الغرب. نهوض المتخلف إلى مستوى الحضاري. وإذا كانت الثقافة هي الموضوع عندها تغيب مسألة تملك الوطن. ومن رأيها أيضاً أن هذه الهيكلية تفقد موسم الهجرة بعداً أساسياً فيها (2). لذا فهي تقترح الهيكلية التالية:



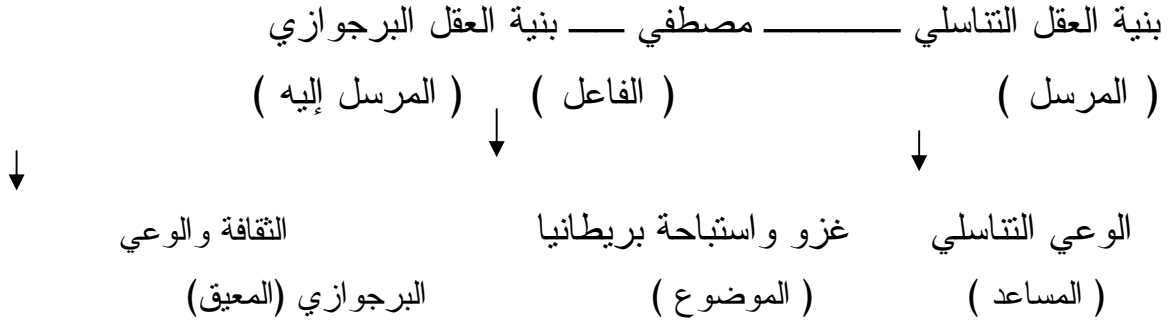
"في هذه الهيكلية يتحدد الفعل الروائي كفعل لتملك الوطن ينطلق من السودان ويستهدفه، يذهب عنه ويحمل شوق العودة إليه... إن سلوك مصطفى في المقطع الأول من الرواية

وإخفاء حقيقته كمتقف تفسره هذه الهيكلية وإذ تلتقي دلالات الرواية، في نطاق هذه الهيكلية، على مسألة التملك، إنما تولد نسقاً يميز الرواية كعمل أدبي قادر على قراءة الواقع الاجتماعي " في تاريخيته قراءة تخلق عالمه المتخيل وتخصصه." (2)

إن يمني العيد لم تستبعد أهمية الصراع الثقافي الذي يتجلى من خلال الهيكلية التي يقترحها طرابيشي (حسب زعمها) ولكنها تضعها في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بالقياس للهيكلية التي تقترحها، حيث التأكيد على بعد التملك والدفاع عن الوطن، أي البعد السياسي. لا جدال أن موسم الهجرة تنطوي على البعد الثقافي كما تنطوي على البعد السياسي، ومن ثم إذا أردنا ترتيب هذه الأبعاد من حيث الأهمية أو الأساسية فلا بد من معيار. إن هذه المعيار في غياب معرفتنا بنظام النص الأدبي وهويته يعتمد على القراءة الأكثر انسجاماً وإجابة على الأسئلة التي تطرحها الرواية، وهي أسئلة في كثير من الأحيان تملئها نظرية مضمرة أو معلنّة إلا أنها لا تعانق جوهر النص على أكمل وجه. لذا فإن الهيكلية التي تقترحها يمني العيد لا تجيب بدورها على بعض الأسئلة الهامة: لماذا لم يواصل مصطفى سعيد، حين عودته، نضاله السياسي من الخرطوم، فالاستعمار مازال جاثماً على صدور السودانيين آنذ؟ لماذا اختبأ في قرية نائية وتكر وظنّ أن معرفة نضاله السياسي السابق في بريطانيا سوف يسئ إليه؟ وإذا كان تتكره خوفاً من أن ينكشف سجل غزواته الجنسية، فإن هذا الخوف لا يوجد ما يبرره في مجتمع ذكوري يتفاخر فيه الرجال بانتصاراتهم الجنسية، وكان ذلك واضحاً في مجال أنسهم: ود الرئيس، بت مجذوب... الخ.

عليه إن إقرارنا بتعدد أبعاد موسم الهجرة يجعلنا نفترض أن طموح مصطفى سعيد الأساسي كان أكبر بكثير من أن يحصر في بعد الصراع السياسي أو الثقافي. لقد حدد مصطفى سعيد بنفسه دوره وقضيته الأساسية: " نعم يا سادتي، إنني جئتكم غازياً في عقر داركم... قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ." (3) ص 98 إن رسالة مصطفى سعيد أكبر طموحاً وأكثر جسارة من تملك الوطن وتحرره إنها تكمن في أنه آل على نفسه أن يستبيح بريطانيا مثلما استباحت مجتمعه وشعبه. وأن يلحق بها العار والهزيمة مثلما ألحقت العار والهزيمة بأهله ووطنه. على ضوء هذه الفرضية في إمكاننا أن نجرى بعض التعديل على الهيكلية

التي اقترحتها يبنى العيد بحيث يتسنى لنا الكشف عن التعدد والتنوع والثراء في أبعاد موسم الهجرة في ضوء التحليل الفاعلي:



من خلال هذه الهيكلية ينهض الفعل الروائي كفعل غزو واستباحة للآخر يوظف من خلاله الجنس والثقافة والسياسة... الخ. غير أننا نحتاج من أجل الوصول إلى ذلك أن نخضع موسم الهجرة للتحليل الفاعلي، بغرض تفجير فاعلية النص الروائي من خلال الكشف عن نسيج علاقات الفاعلية.

على الرغم من ضعف عطاء التحليل الماركسي والتحليل النفسي آنف الذكر تعتبر موسم الهجرة إلى الشمال من الأمثلة البسيطة، لكن الغنية، التي تكشف عن ثراء التحليل الفاعلي :-

تدور أحداث موسم الهجرة إلى الشمال في ود حامد، قرية على ضفاف النيل في شمال السودان، في النصف الأول من القرن العشرين. لذا فإن الواقع الإنساني أو الشرط الاجتماعي الحضاري القائم الذي يشكل بنية الحدث يتمثل في شيئين:

I- سيادة بنية العقل التناسلي.

II- الإحساس بمرارة الهزيمة الحضارية والقهر الاستعماري.

إن عملية الغزو الثنائي (البريطاني المصري) للسودان عام 1898 كانت حديثة عهد إذ أن ما يمكن تسميته ببطل الرواية، أرجو أن أكون في حل من اختلاف النقاد حول هذه القضية، مصطفى سعيد، ولد في نفس الشهر، 16 أغسطس 1898 م، الذي تحركت فيه جيوش الغزو بقيادة كتشنر من عطبرة بعد هزيمة محمود ود أحمد وأسرته قاصدة أم درمان لتطوي الصفحة الأخيرة من الثورة المهديّة التي أعلنت من شأن السودانيين في نظرهم لأنفسهم وضخمت من إحساسهم بدورهم في صناعة التاريخ والحضارة. دافع السودانيون عن

عالمهم ببسالة نادرة واستشهدوا بعشرات الألوف وكان للتفوق التكنولوجي الهائل في آلة الحرب أن يحسم المعارك لصالح الغزاة.

حينما نشأ مصطفى سعيد وترعرع كان المستعمر قد فرض سلطانه وأصبح واقعاً كريهاً جاثماً على صدور السودانين، على الرغم من الهزيمة العسكرية والتكنولوجية والحضارية التي ألحقها المستعمر ببنية العقل التناسلي إلا أنه لم يغرزا كلية، أي تبديل كافة خصائصها النوعية لأن ذلك يقتضي تحولاً اقتصادياً واجتماعياً وزيادة في الكثافة السكانية تفرز طبقة برجوازية ترتبط مصالحها بالمشروع الرأسمالي. لذا ظل التناقض والتناحر قائماً بين بنية الوعي البرجوازي الغازية والبنية التناسلية المغزوة. ظلت الرغبة في إلحاق الهزيمة بالمستعمر والثأر للآباء والأخوة الذين حصدتهم رصاص المستعمر دفيئة تستعر في بنية العقل التناسلي.

تحت هذه الشروط ماذا نتوقع أن يفعل طفل نابغة يتيم نشأ وترعرع تحت رحمة وحب وتقدير المجتمع؟ نتوقع أن يصبح أكثر حساسية تجاه الغبن الذي حاق بأهله وعشيرته وألاً تستقيم حياته إن لم يثار لهم ويلحق العار والهزيمة بأعدائهم. هذه باختصار رسالة مصطفى سعيد والدور الذي ينبغي أن يلعبه في الحياة، ولكن كان لهذا الدور أو الرسالة أن تترجم وفقاً لخصائص بنية عقله التناسلي.

لذا كان لا بد أن يذهب مصطفى سعيد إلى بريطانيا غازياً. قال لهم "نعم يا سادتي، أنني جئتكم غازياً في عقر داركم.. قطرة من السم حقنتم به شرايين التاريخ" (3) ص 98، تماماً كما جاء كتشنر غازياً للسودانيين في عقر دارهم من قبل. فالمطلوب إذن أن يلعب مصطفى سعيد دور كشنر. ولكن بما أن قمة الانتصار بالنسبة للبنية البرجوازية التي يمثلها كشنر هو الاستحواذ على مال وخيرات السودان، فإن قمة الانتصار بالنسبة للبنية التناسلية التي يمثلها مصطفى سعيد هي استحواذ النساء. وبما أن قمة الهزيمة بالنسبة للبنية البرجوازية هي إفقار الآخرين، فإن قمة العار والهزيمة بالنسبة لبنية عقل مصطفى سعيد التناسلية هي هتك واستباحة أعراض الآخرين، في هذه الحالة البريطانيين. لذا فقد آل مصطفى سعيد على نفسه أن ينال من البريطانيين أن يضاجع أكبر عدد منهن بلا زواج لأن الزواج يهزم

المهمة التي هو من أجلها. واستطاع مصطفى سعيد إغواء أعداد هائلة من البريطانيات مستخدماً كل نبوغه وثقافته الغزيرة. "اقرأ الشعر، وأتحدث في الدين والفلسفة، وأنقد الرسم، وأقول كلاماً عن روحانيات الشرق. أفعل كل شيء حتى ادخل المرأة في فراشي. ثم أسير إلى صيد آخر" (3) ص 33.

كان مصطفى سعيد متفانياً في رسالته، شيمة من يقتنع بدوره، وكان يظن أنه ألحق هزيمة نكراء بالبريطانيين الذين لاشك سيمزقونه إرباً إرباً حينما يتكشف لهم مدى العار الذي ألحقه بهم.

إن الفتاة الوحيدة التي لم تخضع لبرنامج مصطفى سعيد في إلحاق العار ببريطانيا هي جين مورس، رفضت جين مورس رفضاً باتاً أن ينال مصطفى سعيد من أنوثتها دون زواج وأجبرته على أن يتزوجها. كان زواجه من جين مورس أول هزيمة بالنسبة له. وكأنما كانت جين مورس على علم بمخططه العدوانى فأخذت هي التي تعمل على أن تهتك بعرضه وتخونه. قال لها " أنت تخونيني. قالت أفرض أنني أخونك. صرخت فيها أقسم أنني سأقتلك، ابتسمت ساخرة وقالت أنت فقط تقول هذا. ما الذي يمنعك من قتلى؟ ماذا تنتظر؟ لعلك تنتظر حتى تجد رجلاً فوقى. وحتى حينئذ لا أظنك تفعل شيئاً. ستجلس على السرير وتبكي" (3) ص 16. لذا حينما سئل مصطفى سعيد في قاعة المحكمة الكبرى في لندن " هل تسببت في انتحار آن همدن " :

— أجاب " لا أدري " .

— "وشيلا غرينود" .

— "لا أدري" .

— " وإزابيلا سيمور؟ " .

— "لا أدري " .

— " هل قتلت جين مورس؟ " .

— " نعم " .

— " قتلتها عمداً؟ " .

- "نعم" (3) ص 36.

إن مصطفى سعيد كان منسجماً مع طبيعة بنية عقله حينما قتل جين مورس، على الرغم من أننا نستهن هذا القتل من خارج البنية التناسلية. إذا رجع المرء إلى سجلات البوليس في الريف السوداني، ربما حتى يومنا هذا، سيجد أن معظم جرائم القتل ذات أسباب جنسية تتعلق بالعرض و " الشرف".

ولكن لماذا تسبب مصطفى سعيد في انتحار ما تبقي من صديقاته أليس في ذلك ما يؤكد نزعة الشر المتأصلة فيه حسب تحليل الجمعية النفسية السودانية؟ لقد أجاب مصطفى سعيد على هذا السؤال بأن قال "لا أدري" إن ما هي الدلالة وراء أن كل من صادقها وأحبها أخذتها يد المنية؟

الإجابة على هذا السؤال تستوجب الرجوع إلى خاصية أساسية من خصائص بنية العقل التناسلي، هي علاقتها المميزة مع الموت.

من الأسباب الرئيسية لنشأة بنية العقل التناسلي وسيادتها ارتفاع معدلات الوفيات في المجتمع وعدم وجود وسيلة أخرى للسيطرة على الموت سوي رفع معدلات المواليد. يترتب على ذلك خبرة شعورية قاسية ومريرة يعيشها الإنسان بفقدانه أعز الناس إليه وبمعدلات عالية، يفقد الإنسان إخوته، والديه، أبناءه، بناته، زوجاته... الخ. لا يمضي عام أو عامان حتى يفقد الإنسان شخصاً عزيزاً عليه دون أن يدري أسباب الوفيات في معظم الحالات. إذن فقد الإنسان لأحبابه من السمات البارزة لبنية العقل التناسلي.

يترتب على هذه الخبرة الشعورية القاسية، فقدان الإنسان لأحبابه، أن تنتقل أجمل وأسعد لحظات الحياة التي عاشها الإنسان مع من مات من أحبائه، فيفقد الإنسان أروع صفحات تاريخه. وحينما يصبح الإنسان بلا ماضٍ يفقد الأمل في المستقبل فيزهد في الحياة بل أحياناً يتشوق لمفارقة الحياة ليلحق بماضيه الزاهر في عالم الأموات. لذا فإن تيارات الزهد لصيقة ببنية العقل التناسلي. نرجع إلى مصطفى سعيد لنجد أنه لا يدري لماذا ماتت أو انتحرت حبيباته. ولكنه حاول أن يجد للظاهرة تفسيراً ينسجم ودوره كغازي فقال: "إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل السوم وفي فردان،

جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام. نعم يا سادتي إنني جئتكم غازياً في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به سرايين التاريخ " (3) ص 98.

إن اتهام مصطفى سعيد لنفسه بأنه أصبح يحمل جرثومة مرض فتاك يفسر الآلية التي أقامت بها بنية عقله التناسلي خاصيتها المميزة في فقد وموت الأحباب بمعدلات عالية في مجتمع، بريطانيا، لا يختص بنفس الوتائر العالية للوفيات. معلوم أن الجرثومة، خاصة الفيروس، حينما يغزو الخلية يبطل خصائصها الوراثية ويعيد ترتيب بعض مكوناتها وفقاً لخصائصه الوراثية وبذلك يفتك بالخلية. إذن هو منتهى الغزو أن تفرض أو تقم بنية عقل مصطفى سعيد خصائصها التكوينية بمعدلات وفياتها المرتفعة في مجتمع ليست له نفس الخصائص التكوينية. ولقد أراد بذلك الطبيب صالح أن يمنح عملية الغزو التي قام بها مصطفى سعيد طابعاً مأساوياً وتدميراً، كما فعل كتشنر في السودان وهو الدور الذي يتطلع أن يلعبه مصطفى سعيد في بريطانيا. ربما لم تخطر الفكرة على هذا النحو من الأساس، على الطبيب صالح، وهذا بدوره يوضح معنى أن يكون النص غنياً بالتشكيلات الدلالية، كما يوضح معنى استقلالية بنية الفاعلية اللغوية أو التخيلية. أنا لست مختصاً في النقد الأدبي لكن في هذا الموقع تصبح عبقرية الطبيب صالح من الجلاء بحيث يستطيع أن يتعرف عليها الشخص العادي، غير المختص.

لكن هل نجح مصطفى سعيد في رسالته أي هل ألحق الخذي والعار بالبريطانيين؟ إن مأساة مصطفى سعيد تكمن في أنه فشل فشلاً ذريعاً في مهمته لسبب بسيط هو إن الجنس ليس إطاراً مرجعياً لنظام القيم في بنية العقل البرجوازي كما هو الحال في بنية العقل التناسلي. لقد أدى استيفاء البنية التناسلية لمهامها في المجتمعات الغربية إلى أن يستقل الجنس عن التناسل، من ثم فقد مرجعيته لنظام القيم. لو فعل مصطفى سعيد جزءاً يسيراً مما فعل في بريطانيا في كثير من القبائل السودانية لمثل به شر تمثيل، وربما قطع عضوه التناسلي مثلما فعلت حسنة بنت محمود بود الريس، أو لربما ذبح لأن الجسد في جملته في حسابان بنية العقل التناسلي رمز للعضو التناسلي. لو أن رد فعل كهذا حدث في بريطانيا لشعر مصطفى سعيد بزهو الانتصار وبأنه ألحق الخذي والعار بأعدائه وأنه قام برسالته

على أتم وجه. هكذا صارت قيمة رسالة مصطفى سعيد ومعنى حياته يتوقف على أن يدمره البريطانيون ويقتلوه. بيد أن رد فعل البريطانيين كان على العكس من ذلك تماماً الأمر الذي أورثه الإحساس بالفشل والهزيمة فاننتفت قيمة الحياة في نظره. قال " ومرة خطر لي في غيبوتي وأنا جالس هناك استمع إلى أستاذي البروفسير ماكسول فستركين يحاول أن يخلصني من المشنقة، أن أف وأصرخ في المحكمة " هذا المصطفى سعيد لا وجود له. وانه وهم وأكذوبة. وأني أطلب منكم قتل الأكذوبة " (3) ص36. ولكن بر فسير فستركين حول المحاكمة إلى صراع بين عالمين كان مصطفى سعيد أحد ضحاياه.

وفُجع مصطفى سعيد في المحلفين "والمحلفون أيضاً أشتات من الناس، منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتي، لا تجمع صلة بيني وبينهم لو أنني طلبت استئجار غرفة في بيت أحدهم فأغلب الظن أنه سيرفض، وإذا، جاءت ابنة أحدهم تقول له إنني سأتزوج هذا الرجل الأفريقي فيحس حتماً أن العالم ينهار تحت رجليه. ولكن كل واحد منهم في هذه المحكمة سيسمو على نفسه لأول مرة في حياته". (3) ص97.

إذن تأمروا ضده، قال الراوي حينما اختفي أو انتحر مصطفى سعيد " إنما هل هي فعلاً النهاية التي يبحث عنها، لعله كان يريد لها في الشمال، الشمال الأقصى في ليلة جليدية عاصفة، تحت سماء لا نجوم لها بين قوم لا يعنيه أمره. نهاية الغزاة الفاتحين ولكنهم تأمروا ضده المحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها " (3) ص71.

إزاء هذا الوضع، أو التآمر، كان لا بد أن يشعر مصطفى سعيد بالفشل والهزيمة. فقد كان يتطلع إلى أن يلعب دور ككتشنر ها هو يلعب دور محمود ود أحمد " حين جئ إلى ككتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعة أتبرا، قال له لماذا جئت بلدي تخرب وتتهب ؟ الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً. فليكن أيضاً ذلك شأني معهم. " (3) ص97. لقد اعترف مصطفى سعيد بأنه قد هزم ومن ثم لم تعد لحياته جدوى " رأي المحلفون أمامهم رجلاً لا يريد أن يدافع عن نفسه. رجلاً فقد الرغبة في الحياة. " (3) ص71.

بدأ إحساس مصطفى سعيد بالفشل والهزيمة، كما ذكرت، منذ أن تزوج جين مورس ولكنه لم يمت معها، تهيأ له أنه بقتلها قد غسل شيئاً مما علق بنفسه من خذلان فتبدى له بصيص من الأمل، رغم قناعته بأنها فضلت الموت على قبول الهزيمة وعاش هو للهزيمة - الهاجس الذي سوف يلاحقه بقية حياته. أما الآن وقد تأمروا عليه فلم يعد له من خيار سوى أن يحكم هو على نفسه بالإعدام فانسحب من الحياة.

رجع مصطفى سعيد يجرجر أذيال الهزيمة وقبر نفسه في قرية ود حامد، عاش متتكرراً حتى لا ينفصح أمره ويعلم أهله أنه قد خذلهم رغم الآمال العراض التي وضعوها عليه. عاش حياة رسول بلا رسالة. ومع ذلك فقد شارك أهل القرية حياتهم بسرائها وضرائها، تزوج حسنة بت محمود وكان نموذجاً للمواطن الصالح، ولم يكن دونجواناً. بيد أن الإحساس بالهزيمة وعدم جدوى الحياة لم يفارقه. لذا كتب في الوصية التي تركها للراوي ليرعى طفليه. " وكم كنت أتمنى أن أظل معهما أراقبهما يكبران أمام عيني ويكونان على الأقل مبرراً لوجودي. أنني لا أدري أي العملين أكثر أنانية، بقائي أم ذهابي ومهما يكن فإنه لا حيلة لي ولعلك تدرك قصدي إذا عدت بذاكرتك إلى ما قلته لك تلك الليلة. لا جدوى من خداع النفس ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني وقد ظننت أن حياتي وزواجي هنا سيسكتانه. " (3) ص 70.

لكل هذا فمن الأرجح أن مصطفى سعيد قد انتحر ووضع نهاية حياته بنفسه. وهي بالطبع ليست النهاية التي كان يتطلع إليها كما أوضح الراوي، فقد كان يحلم بنهاية الغزاة الفاتحين (3) ص 71.

نمو الفاعلية في بنية الشخصية

إن انبناء الفاعلية في بنية الشخصية يتم بوسائل متعددة ومتنوعة، من ضمنها الانفلات من بنية العقل السائدة والدفاع عن مشروع بديل ، ومنها وفاء كل بنية لمشروعها والدفاع عنه بشتى الوسائل، علاوة على توظيفها البنيتين الأخرين، أحدهما أو كليهما، لأغراضها، أو تهميشهما وخنقهما بغية تحقيقها بمرامجهما. في هذا الإطار يلاحظ أن بنية الشخصية في

موسم الهجرة إلى الشمال لا تحتوى على انفلات عن بنية العقل السائدة ولكنها بالمقابل غنية بالفاعلية التناسلية.

من أبرز مظاهر الفاعلية التناسلية هو توظيفها للبنية الخلاقة من أجل مهامها وأغراضها " أقرأ الشعر، وأتحدث في الدين والفلسفة، وانقد الرسم، أقول كلاماً عن روحانيات الشرق. افعل كل شيء حتى ادخل المرأة في فراشي. ثم أسير إلى صيد آخر." يتضح من هذا النص أن علاقة مصطفى سعيد بالمعرفة لم تكن أساسية، هي بالنسبة له مجرد وسيلة لرسالته الجنسية. وفي مكان آخر اعترف " ثلاثون عاماً وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر. مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت... ثلاثون عاماً وأنا جزء من كل هذا، أعيش فيه، ولا أحس جماله الحقيقي، ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة."

تتجلى الفاعلية التناسلية أيضاً من خلال ربط مفهوم الحياة بالتناسل لذا نجد أن حسنة بت محمود زوجة مصطفى سعيد حينما طعنت ود الريس عشر طعنات بالسكين لم تقتنع إنها قتلته أو هزمته إلا بعد أن قطعت عضوه التناسلي. عليه، فإن الموت الحقيقي بالنسبة لها هو فقد القدرة على التناسل.

ذكرت أن محاولة التواء مع الموت، تفادياً أو تخفيفاً لمرارة الإحساس بفقد الأهل والأحباب تخلق أحياناً تياراً من الزهد في الحياة، ربما طال الحياة نفسها، كما هو حال الراوي وجده، لكن إذا كانت الحياة تعني التناسل والتناسل بغزارة، فإنه مهما عاش الإنسان وعمر يتراءى له طالما كان ضعيف التناسل، أنه حي كالميت. لهذا قال الراوي يصف جده "أنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ولكنه كشجرة السيال في صحاري السودان. سميكة اللحي حادة الأشواك تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة " (3) ص 77.

حينما اكتشف الراوي مصطفى سعيد اكتشاف خواء حياته لأن حياة مصطفى سعيد كانت زاخرة بكل الآمال والطموحات والأحلام التي كتبها الراوي بحكم زهده والتي كانت تتطلع إليها بنية عقله التناسلي. اكتشف الراوي أن حياته أيضاً لا تعني شيئاً فهذا هو يتقاعس

ويحجم حتى عن إنقاذ المرأة التي أحبها حسنة بت محمود فتركها فريسة سهلة لود الرئيس وللموت. وبما أنه عاجز من اتخاذ أبسط القرارات دعماً للحياة والتنازل فلا معني لحياته وكاد يموت غرقاً، ولكنه في اللحظات الأخيرة غير رأيه " كان ذهني قد صفى حينئذ وتحددت علاقتي بالنهر أنني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه فكرت أنني إذا مت في تلك اللحظة فإنني أكون قد مت كما ولدت، دون إرادتي، طول حياتي لم أختار ولم أقرر. إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة. (3) ص 170

توضح موسم الهجرة إلى الشمال أيضاً كيف تختزل الفاعلية التناضلية مفهوم الإنسانية والرجولة وتعادلها بمفهوم الفحولة : سأل بكري بت مجذوب قائلاً " حديثنا يا بت مجذوب أي أزواجك كان أحسن ؟" فقالت بت مجذوب على الفور ود البشير فقال بكري: ود البشير الكحيان التعبان ؟ كانت العنز تأكل عشاءه. فأوضحت بت مجذوب أنها تفضل ود البشير لأنه قوي جنسياً ولأنه يمارس معها فعل الحب من بعد صلاة العشاء وحتى أذان الفجر (3) ص 79. يتضح من هذا السياق أن قيمة ود البشير تكمن في فحولته أما أن يكون عاملاً وذا همة اجتماعية فهي مجرد مسائل ثانوية.

وقال ود الرئيس يصف الراوي " قبيلتكم هذه لا خير فيها أنتم رجال المرأة الواحدة – ليس فيكم غير عمك عبد الكريم ذلك هو الرجل " وكان عبد الكريم عم الراوي مطلقاً ومزواجاً وزانياً (3) ص 83. حين دخل الراوي غرفة مصطفى سعيد المظلمة وجد بين الأوراق كراسة مكتوب عليها " قصة حياتي بقلم مصطفى سعيد " وفي الصفحة التالية " الإهداء إلى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء إما سوداء أو بيضاء إما شرقية أو غربية. " وحين قلب الراوي بقية الصفحات لم يجد شيئاً ولا سطرأ واحداً، ولا كلمة واحدة مكتوبة فتعجب الراوي وتساءل إذا كان لهذا دلالة (3) ص 152. وبالطبع لهذا دلالة لأنه حينما يختزل الجنس أو التكاثر كل أبعاد الحياة (الفاعلية) لا بد أن يرى الناس بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ... الخ، يتلاشى التنوع والاختلاف. ثم يأفل الإبداع وتسقط الحضارة. لذا فإن مصطفى سعيد رغم نبوغه المذهل لم يستطع أن يقدم مساهمة حضارية فاعلة بل استغل قدراته من أجل إغواء الفتيات. كانت بيئته السيكلوجية مأهولة

بتيارات الوعي الجنسي وليس بمشكلات المعرفة والنهضة. " لو أنه فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس، ولكنتم سمعتم به هنا. كان قطعاً سيعود وينفع بعلمه هذا البلد الذي تتحكم فيه الخرافات."

مضمرة النص: مصطفى سعيد وأزمة المثقف السوداني

ذكرنا سابقاً أن النص الأدبي بنية فاعلية تخیلية مستقلة، بمعنى أن ليس بالضرورة أن تعكس الواقع، ومع ذلك فمن المحتمل أن تتطوي على دلالات واقعية مضمرة بحكم أنها أشمل من بنية الواقع وبحكم أنها أيضاً بنية للفاعلية. عليه يمكن تأويل النص بحيث يرمز مصطفى سعيد للمثقف السوداني الذي فشل في حل اللغز، من ثم يرمز انتحار مصطفى سعيد إلى ما يمكن أن يؤول إليه حال المجتمع من انهيار ودمار إذا عجز عن التصدي للتحديات التي تواجهه. إن اللغز الذي فشل في حله مصطفى سعيد – المثقف السوداني – هو تجاوز التناقض بين فحوى بنيته العقل التناسلي والبرجوازي. وهو التناقض الذي يترتب عليه التناقض بين العلم والإنسان وبين التراث والمعاصرة.

ظل مصطفى سعيد وفيماً لبنية عقله التناسلي وكان يظن أنه سيتصدى ويحل معضلات نهضة واستقلال إفريقيا حينما كان رئيساً لجمعية تحرير إفريقيا بعضوه التناسلي. وما زال المثقف السوداني يتبنى نفس الموقف من قضايا النهضة والتغيير الاجتماعي، ذلك أن ولاءه لأسرته، زوجته، أكبر من ولاءه للوطن والمجتمع. يخول لنفسه سرقة وخيانة الوطن إنقاذاً لكرامة الأسرة ورفاهيتها. الأسرة عنده هدف الحياة وغايتها " وكم كنت أتمنى أن أظل معهما أراقبهما يكبران أمام عيني ويكونان على الأقل مبرراً لوجودي " (3) ص 70. لم يستطع مصطفى سعيد أن ينتج معرفة أو مشروعاً نهضوياً وحضارياً يكون مبرراً لوجوده، وهو حال المثقف السوداني الآن..

دخل مصطفى سعيد وهو وفيماً لبنية عقله التناسلي، في مواجهة ضد بنية العقل البرجوازي ولكنه انهزم بل استدمج الهزيمة، بمعنى أن تفوق المستعمر العسكري والحضاري والتكنولوجي مكنه من أن يحتل بالإضافة إلي الأرض بعض المساحات في اللا شعور يكون

ولاؤها لأهداف وغايات بنية العقل البرجوازي. لذا فإن مصطفى سعيد (المثقف السوداني) يعيش الواقع في ود حامد (أو أي رقعة في السودان) متزوجاً حسنة بت محمود، ولكن عقله الباطن مأهول ومحكوم بجين مورس وعالمها البرجوازي، وهو لا يستطيع أن يعبر عن " أحلامه " إلا باللغة الإنجليزية. ظل مصطفى سعيد في ود حامد، في الوعي، جزءاً لا يتجزأ من الحياة الواقعية في الحقل وفي المسجد ولكنه في اللاوعي، تلك الحجرة المظلمة التي دخلها الراوي، يحتفظ بطموحات وغايات بنية العقل البرجوازي، وهو حال المثقف السوداني منقسم على نفسه ذو وجهين. في حركة الحياة العادية هو مع الناس في الحقل والمسجد، ولكن ما أن تؤول إليه سلطة أو نفوذ سرعان ما ينسحب مسرعاً إلى غرفته المظلمة ليجلب لها الأثاثات من أوروبا وأمريكا سارقاً قوت الكادحين. تجدر الإشارة إلى أن الراوي حين دخل غرفة مصطفى سعيد المظلمة في ود حامد وجد ضمن ما وجد " تصوروا، مدفأة إنجليزية بكامل هيئتها وعدتها فوقها مظلة من النحاس وأمامها مربع مبلط بالرخام الأخضر ورف المدفأة من رخام أزرق وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من الحرير المشجر، منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر " (3) ص 137.

إن انقسام وانقسام بنية عقل مصطفى سعيد يتحول إلى سمة وظاهرة اجتماعية. هناك مثقفون تناسليون وآخرون برجوازيون، كل من الفريقين صورة من مصطفى سعيد من حيث الازدواجية والغرفة المظلمة ومحتوياتها. عليه لا اختلاف بينهما في الغايات بل ينجم الاختلاف في الوسائل والحيل التي تستخدم لتأثير الغرفة المظلمة. التناسليون ينقلون من التراث ويظنون أن تلك عين الأصالة التي تستوجب مناهضة العلمانية، حجتهم أن حضارة الأجداد تصلح لكل مكان وزمان متجاهلين مسئولية وضرورة إنتاج الحضارة في كل مكان وزمان.

البرجوازيون ينقلون من الغرب ويظنون أن تلك عين المعاصرة التي تحقق النهضة بالعلم عوضاً عن الإنسان. حجتهم كونية تطبيق العلم متجاهلين تحت وطأة استهلاكهم للعلم كونية إنتاج العلم. إذن السمة المميزة للفريقين هي عجزهما عن إنتاج المعرفة وإعادة صياغة

الواقع. لذا فهم يستجدون ويتسولون على كافة المستويات يستجدون الأصالة ويستجدون المعاصرة. بالطبع ليس كل المثقفين السودانيين تناسليين وبرجوازيين... ولكن..

لكن ها نحن نري الوطن ينهار أمام أعيننا، أنه ينتحر تماماً، كما انتحر مصطفى سعيد، تحت وطأة تناقضاته الذاتية. ليس من مخرج للمجتمع السوداني إلا بحل اللغز الذي يتطلب تجاوز التناقض بين فحوى البنية التناسلية والبرجوازية. لا يمكن حل اللغز على مستوى البنية التناسلية لأن النهضة مستحيلة بالإنسان عوضاً عن العلم، كما لا يمكن حل اللغز على مستوى بنية العقل البرجوازي الاستغلالية لأن النهضة أيضاً مستحيلة بالعلم عوضاً عن الإنسان. هذا التناقض والتناحر ذو الطبيعة التدميرية حينما يحل على الفرد أو المجتمع بين فحوى بنيتي العقل التناسلي والبرجوازي الذي يترتب عليه التناقض بين العلم والإنسان وبين التراث والمعاصرة، يجد حله في بنية العقل الخلاق، أي وعي الإنسان لذاته ككائن خلاق نشط. وعي الفاعلية.

المراجع والهوامش:

- - هذه المقاربة نموذج تطبيقي مأخوذ من كتاب "الإنسان والتحليل الفاعلي" الذي صدر عن مطبعة الوعد بالخرطوم - 1989. ثم أدرجتها حديثاً في كتاب "التحليل الفاعلي والأدب - نحو نظرية جديدة للأدب"، الذي لم ينشر بعد.
- - لمعرفة أساسيات التحليل الفاعلي يمكن الرجوع إلى كتاب "التحليل الفاعلي - نحو نظرية حول الإنسان"، دائرة الإعلام والثقافة - الشارقة، 2001.
- 1 - الجمعية النفسية السودانية، في مقال بعنوان "هجرة بلا مواسم" في كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة، بيروت، لبنان.
- 2 - يمنى العيد، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1985م، ص 261.
- 3 - الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، 1969م.
- 5 - على عبد الله عباس، الراوي موسم الهجرة إلى الشمال، ورقة قدمت في منتدى الجمعية السودانية للعلوم الإنسانية، كلية الدراسات العليا، جامعة الخرطوم، مارس 1989م.

* الشيخ محمد الشيخ تخرج في كلية العلوم، قسم الرياضيات، جامعة الخرطوم، وحصل فيها على درجة الماجستير في العلوم الرياضية. يعمل حالياً رئيساً لقسم الرياضيات، كلية العلوم، جامعة التحدي، سرت، ليبيا.